باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناهُ ترحيباً في المعارف وإنهاضاً للهمم وتمهيداً للاذهان . ولكنّ العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فمن براعتهِ كلهِ . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمهِ ما يأتي : (١) المناظر والمناظِر مستقلان من أصل واحد فمناظرك نظير (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غير عنيفٍ كان المعترف باغلاطهِ اعظم (٣) خير الكلام ما قلّ ودلّ . فالمقالات الراقية مع الايجاز تُختار على المطوّلة

الفلسفة المادية . حقيقتها . ونتائجها

عزيزي الدكتور صرّوف

اشكرك اولاً . ثم استميحك الإذن في الملاحظة الآتية

في كلامك على « الرُّجحان » في المقتطف قلت :

« والظاهر ان الدكتور نظم هذه القصيدة وشرحها قبل نشوب الحرب الحاضرة وما انتجتهُ الفلسفة المادية »

فهل انت من المعتقدين ان الحرب الحاضرة وفظائعها نتيجة هذه الفلسفة ؟

اذا كان العلم اليوم زاد العدّة فتكاً والسطوة اتساعاً ، ولم يهذّب الطبائع كما ينبغي ، ولم ينظّف العقول كما يجب ، ولم يمنع الحروب الجائرة ، فهل كانت الحال في الماضي اصلح ، وهل كانت الحروب اقلّ ، أم كانت اكثر جوراً وفظائعها اشنع كذلك « بطبيعتها » منها اليوم ، مع شدّة شناعة الحرب الحاضرة ؟ وهل يجوز في احكامنا ان ننسى تاريخ المقابلة ؟

وما هي الفلسفة المادية ، وما هو تعليمها في الاجتماع ؟

يقولون ان الفلسفة المادية انما هي فلسفة المصلحة ، وان المصلحة سبب الحرب اليوم . وكلا القولين صحيح . ولكنهم يقولون ايضاً — والجرائد صرختنا (١) بترديد هذا القول — ان فلسفة المصلحة من شرّ التعاليم . فهل هذا صحيح ؟

ألم تكن الحروب في الماضي لاجل المصلحة ؟ أوَ ليست المصلحة الدافع لنا في اعمالنا جميعها حسنة كانت ام غير حسنة ، مادية او ادبية ، دنيوية ام غير دنيوية ، وهل أحد منا يسعى لغير مصلحة ؟

(١) بالمعنى العامي الدارج

فبماذا تُشَأنُ المصلحة أن تكون معيارنا في اعمالنا ؟

ولكن المصلحة ما هي ؟ واين هي؟

هذا الذي يختلف الناس فيهِ ، وقلَّ منهم من يفهمهُ على جليَّتهِ ، او يعمل بهِ وإن فهمهُ ان لم يرتَجِ في طبيعتهِ

اكثر الناس في الاجتماع حتى اليوم يعملون كأنَّ مصلحتهم لا تتفق على مصلحة سواهم وهذا سبب اكثر مصائب الاجتماع وثقلهِ في ارتقائهِ . وكان ذلك في الماضي اكثر منهُ اليوم فمن كان المسؤول في الماضي ؟

الفلسفة المادية اساسها علم الطبيعة[1] . فماذا يعلّمنا نظام الطبيعة في امر هذه المصلحة ؟

الطبيعة تنظر الى المصلحة العامَّة في كل أعمالها . ولكنَّ المصلحة العامَّة تتوقَّف على المصلحة الخاصَّة ، وإلاَّ لم تنتظم مجاميع من وحدات ، ولم تنتظم اجسام من مجاميع ، فهي لذلك تنظر الى المصلحة المشتركة ايضاً

نعم ان في الطبيعة شيئاً كثيراً من القسوة ، لأنَّ فيها كثيراً من الاسراف كما في مثال بيض السمك وازهار النبات الذي ضربتهُ . والقسوة هنا شرطٌ لازم لتوفير المصلحة العامَّة ، وإلاَّ عمَّ الموت وبادت المجاميع وبادت الانواع لعدم كفاءة القوت . فعمل الطبيعة هنا معقول

والاسراف هنا ليس تبذيراً ، بل هو عملٌ اقتصاديٌّ من جنس الاعمال الاحتياطيَّة لسلامة الكلّ . ولذلك هو يكثُر في ما كان كثير التعرُّض للطوارئ ، كما في الاحياء التي لا تحضن بيضها ، ويقلُّ في ما كان قليل هذا التعرُّض كما في الحيوانات التي تحضن بيضها واولادها ومنها الانسان . فالعمل هنا في غاية الاحكام والغرض الكلي منهُ متوفر

والتنازع بين وحدات الجسم الواحد ومجاميعهِ مما اشتدَّ فهو تنازع التغابي لمصلحة الجسم وليس هو غالباً العداء المتمكن لاوصالهِ . ولا يكون كذلك الاَّ بين المتغايرات لمصلحة المتماثلات

هذا ما يعلّمنا اياهُ نظام الطبيعة الكبيرة وتطبعهُ فيها فلسفتها المادية . وللعقل شأن كبير في ذلك في الاجتماع . ولكنهُ لا يخرج فيهِ عن هذه القاعدة حتى يقع في الحيف . وخروجهُ عنها حتى اليوم كثير

(١) كان حقها ان تسمى الفلسفة الطبيعية او فلسفة الطبيعة ما كانوا في الماضي يقترن بلفظة « المادية » من الشبهات من انها فلسفة شهوانية لدفع ما قد يكون من ذلك عالقاً في ذهن البعض حتى اليوم

فهل الحرب الحاضرة تنطبق على هذه الفلسفة او هل تعاليم شيريها في الاجتماع معقولة ولو انهم اساطين في العلم ؟

الاجتماع كالجسم الحي . جسم متماثل لهُ وحداتهُ ومجاميعهُ نظيرهُ هي الامم والافراد ونظامهُ كنظامهِ

فهل في نظام الجسم الحيّ ما يوجب هذا التنازع التقاطعي المفكك الاَّ في احوال معينة اوضحناها هناك كالقضاء على وحدات فاسدة لصيانة المجموع او على مجموع غير صالح ان لم يمكن اصلاحهُ لصيانة الجسم . وما خلا ذلك أفليس نظام هذا الجسم يعلمنا ان التنازع في الاجسام المتماثلة مهما راح فيهِ من الضحايا فهو تنازع تعاونيٌّ اذا جاز لي ان اسمّي هذا العمل للمصلحة العامة هكذا ؟

والمراد من قولنا المتماثلات والمتغايرات يتضح جيداً من قول البازجي الكبير

اني رأيت الأُسد أحسن خلَّةً من جنس هذا الناطق المتزيِّ
الناس تقتل كل يوم بعضها والأُسد تقتل غيرها اذ تعتدي

فهل يجوز ان تكون الفلسفة الماديَّة او فلسفة المصلحة سبب هذه الحرب وفظائعها وهي في جسمٍ متماثل وبين اعضاء صحيحة وعلى مصلحة غير متوفرة لاحد ؟ أم الأَولى ان يكون سببها سوء فهم هذه المصلحة لا انها نتيجة هذه الفلسفة ؟

وما هو شان هذه الفلسفة في الاجتماع والعلم لم يتجلَّل طبقات العامَّة . ولم يختمر ولم ينضج في رؤوس الخاصة انفسهم

والشواهد على ذلك كثيرة من تقاعس المجتمع عامَّةً وخاصةً عن المشروعات العمومية النافعة لهُ كأَن العامَّة لا تدري وكأَن علم الخاصَّة « عندي »

بل شاهدُنا هذه الحرب نفسها التي تراق فيها الدماء بحاراً وتذهب المصالح فيها جزافاً لمطامع جنونية في رأس مفتون تحف بهِ زمرة من تجار وسياسيين وعلماء غربي الذمم او مشرَّدي الروية . وهل ينقاد للسفَّاحين الخرَّبين غير المضلَّلين ؟

فالفلسفة المادية غير مسؤولة عن هذه الحرب . وكان يجب ان تنهى عنها لو كانت النفوس متشبِّعة منها ومدركة لها عملاً بالمصلحة المشتركة التي لا تتوفَّر المصالح عامة بدونها — وما المسؤول عنها حقيقةً غير الطمع الجائر والجهل المطبق . والجهل بين الامم الراقية حتى اليوم أكثر جداً مما يُظَنُّ

ألا ترى الأصوب ان نقول معي ان السبب الحقيقي اليوم لهذه الحرب الكبرى هو الانتقال في الاجتماع من قديم راسخ الى جديد لم يستقرّ وانت تعلم كم هي اطوار الانتقال في الطبيعة عنيفة وشديدة الخطر . لان الانسان اذا كان حتى اليوم لا يعرف مصلحتهُ في الاجتماع كما ينبغي ففي الطبيعة نواميس تعاقب الذي يقف في وجه المصلحة العامة وتقضي على اقتنائهِ وتردُّهُ الى هذه المصلحة التي فيها مصلحتهُ ايضاً . وسيخرج الاجتماع بعد هذه الحرب الى حال أصلح لتقشع فيها شيئاً السحابات الكثيفة التي تغمُّ على العقول . ولكن بعد عنف شديد من اثر ذلك التباطؤ وتراكم المتجابنات . وكان ينبغي على العقل ان يقيهُ شرَّ ذلك لو كان أتقى وأرفق

***

واما ما ذكرتهُ من امر الاتصال والانفصال والوجود والخلود واحتمال بقاء الوجدانات الخ . فلا أطيل فيه لئلاَّ يردَّنا الى نظريَّات يطول الاخذ والرد فيها على غير جدوى وشأن العلم فيها ضعيف

وكلامك في ذلك قسمان علميٌّ وغير علميٍّ او طبيعي واحتمالي . فالطبيعي لا محلَّ للخلاف فيهِ . واما الاحتمالي فمذهبك فيهِ ما عدا انهُ يخالف الشائع المعروف هو مزيجٌ اقرب تارةً الى اللاأدرية . وتارة الى المذاهب العملية الطبيعية . ولكنهُ يختلف عنها باحتمال بقاء الوجدان بعد فناء الجثمان في القوَّة الشاملة الخالدة المتصلة على صورة يصعب تصوُّرها . فاما ان يكون بقاؤهُ ضمن الطبيعة . وحينئذٍ يجب ان يكون فيها على غير ما يُعلَم عن بقاء قوى سائر الموجودات الطبيعية التي تنشأ منها وتفنى فيها . وما دليلنا عليهِ؟ وإما هو خارج الطبيعة وحينئذٍ يبقى علينا ان نفهم فوق ذلك كيف يكون هذا الانفصال عنها مع ذلك الاتصال بها . والاجتهاد هنا بيِّن . والحكمة التي سردت عليها الادلة في نظام الطبيعة على صورة خلاَّبة ليست كذلك الاَّ اذا كان النظام المذكور طبيعيًّا اضطراريًّا . والاَّ لم تكن لكثرة النقص الذي لا يذهب عليك فيهِ من مثل الاسراف الذي ذكرتهُ . ومن مثل الاعضاء الاثرية وكثرة تبدُّد القوى في الطبيعة كما لا يخفى . وكان ينبغي انقاؤهُ لو كان العمل غير طبيعي . اللهمَّ الاَّ ان تكون فيهِ على مذهب استاذنا الاكبر الدكتور قان ديك « من ان الذي يصنع ساعة تصنع ساعات هو اعظم من الذي يصنع كل ساعةٍ وحدها » فيكون الشأن بعد ذلك للطبيعة . على ان ذلك مع ما فيهِ من الحكمة للتساؤل الذي فيهِ لاجل العلم لا يجلو مسألة الخلق من طبيعي تارةً وغير طبيعي اخرى بالنظر الى مقامهِ من هذا الاتصال

والانفصال في آنٍ واحد ، ولا يبين مكان الاستقلال للصانع ، وكيفية بقاء الوجدان للصنع . واذا كنا لا نفهم المراد من هذا البناء والهدم المترادفين لغرض غير طبيعي فاذا يهمُّ الطبيعة من ذلك والغرض الطبيعيّ منهُ متوفر لها في تطوُّرها . ولا يأس من ذلك كله اذا كانت النفوس ترتاح اليهِ واذا كان لا يقف في سبيل العلم . واليوم لا يقف كما كان يقف منذ خمسين سنة فقط . والشوط الذي قطعهُ العقل في هذه المدَّة من هذا القبيل يفوق كل حساب . اذكر ذلك هنا ليس لانهُ من موضوعنا ولكن لأُبدي سروري من التحوُّل البديع الذي حصل في العقول في هذه البرهة الوجيزة بالمذاهب العلمية الحديثة التي كانت لتتطفكم الأغر الفضل الاول والاكبر في نشرها بيننا . — واقبل فائق احترامي

الدكتور
شبلي شميل

[المقتطف] لم نكد نقرأ قولكم

فايقظوا عصرنا بظلم عصور سادها الدين ثم بعد اجيبوا

حتى تمثلت امام اعيننا فظائع الحرب الحاضرة واستعداد الالمان لها ماديًّا واديبًّا . ماديًّا باعداد العدة الكثيرة لها من القواد والجنود والمدافع والقنابل والغازات والجواسيس والقواعد التي تنصب عليها المدافع في بلاد العدو . واديبًّا بسعي فلاسفة الالمان وعلمائهم الى استخدام العلوم الفلسفية والبيولوجية لاقناع الشعب الالماني انهُ ارقى الشعوب كلها ويجب ان يسودها ويستغل في سبيل هذه السيادة كل محرَّم . ولذلك ظننا انكم تظمتم قصيدتكم وشرحتموها قبل نشوب هذه الحرب وما انتجتهُ هذه الفلسفة المادية . وعسى ان تطالعوا خطبة الفيلسوف برغسن التي افتتحنا بها هذا الجزء ومقالة صديقكم الدكتور ابي خاطر فيهِ

ونريد بالفلسفة المادية الفلسفة التي تعلم الناس ان يحصروا نظرهم في المادة ونواميسها وينفوا كل ما سواها . فهي لا تكتفي بقول الفيلسوف سبنسر ان الخالق غير معروف ولا يعرف بل تنفي وجودهُ مستقلاً عن المادة كما قال الفيلسوف لوتز . واذا صحَّت هذه الفلسفة وجدت فيها فظائع الالمان اقوى مبرِّر لها والاَّ فكيف لا يجوز للانسان ان يقتل الذين يرى انهم واقفون في سبيل تقدمهِ كما يجوز لهُ ان يقتل الاسود والذئاب والبعوض والذباب . ولماذا لا يجوز لابن باريس وبرلين ان يقتل الزنوج الذين يمنعونهُ من دخول غابة في قلب افريقية ليصطاد فيها كما يجوز لهُ ان يقتل قرداً او انفى يمنعانهِ من دخولها . الا ترون ان المانع الذي يمنع الناس من ان يغتنوا او يأوُوا ضعفاءهم هو في القالب شيءٌ غير المادة وغير نواميسها

ولا يقيد الاحتجاج بالحيوانات ان طرائقها عائشة على تمام الصفاء كما في النمل والنحل والجراد لا يفتي بعضها بعضاً ولا وازع لها غير الناموس الطبيعي فان الحيوانات مرّ عليها ملايين كثيرة من السنين وهي على حال واحدة تقريباً فرسخت فيها غرائز يتعذر نزعها منها . وأما البشر فشذوا عن سائر انواع الحيوان من هذا القبيل مهما كانت اسباب هذا الشذوذ وتمكنوا من التغلب على طباعهم والتطبع بغيرها . فاذا قام في ناموس جماعة انهم ارقى من غيرهم وانهُ يجوز لهم ان يتسلطوا على الغير ويتهنّوهُ فعلوا ذلك . وهذا كان شأنهم من قديم الزمان ويظهر لنا انهُ زاد في هذه الايام حيث بني على قواعد علمية كما بناهُ فلاسفة الالمان حتى ان الشاعر كبلنغ الانكليزي وهو من اهل الخيال الذين ينتظر منهم ان يكونوا ابعد الناس عن الغطرسة واقربهم الى السجية السمحاء طلب من قومهِ في بعض قصائده ان يعاملوا اهالي جنوب افريقية كما يعاملون انفع المواشي لهم . والناس يقولون هذا القول لا يكثر عليهم ان يذبحوا تلك المواشي اذا نشزت عليهم او استحبوا لحمها . والظاهر ان الالمان يفعلون مثل ذلك في مستعمراتهم ولكننا نعتقد ان الشعب الانكليزي لا يزال متمسكاً بقواعد دينهِ الذي يعلّم ان الناس كلهم اخوة ومن دم واحد فهو ارأف من الالمان بسكان افريقية وبكل مستضعف

ورب قائل يقول ان الفلسفة المادية تمنع ارتكاب الفظائع وتنهى عن اثارة الحروب وتوجب على الناس ان يعيشوا عيشة راضية . ولكن القول شيء وتأييدهُ شيء آخر لا سيما وان المشاهد ينفي هذا القول ويثبت ان الفلسفة المادية مسؤولة عن هذه الحرب وان عدم نهيها عنها كان حيث النفوس مشبعة منها . اما سائر البلدان حيث النفوس غير مشبعة منها فارتكاب الناس للفظائع قليل جداً . وقُبيل كتابة هذه السطور وقع نظرنا على المقطم الصادر اليوم (٢٤ مارس) وفي تلغرافاتهِ واخبارهِ الفقرات التالية

(١) «كان في محطة سكة الحديد (في مدينة زيبروج) قطار المالي فيهِ ٣٥٠ جريحاً من الالمان فلم تقذف الطيارات والبوارج (الانكليزية والفرنسوية) القنابل عليهم»

(٢) «وقد انقذ الهوس جميع جرحى الالمان (والبلجيكة) »

(٣) «ومما يجدر ذكرهُ في هذا الصدد ان جميع الدوائر العسكرية البريطانية تطري الضباط والجنود العثمانيين على ما ابدوهُ من الشهامة والرجولية في حربهم وتقابل بين هذه الصفات العسكرية الرائعة وبين ما فعلهُ الالمان»

والتفتنا نحن ببعض الذين عادوا من عيشولي من ضباط الجيش البريطاني وسمعناهم يثنون

الشاه المستطاب على الجنود العثمانية وقد ذكروا لنا بعض افعالهم الدالة على شهامتهم ومروءتهم وقالوا انهم لم يروا منهم شيئاً يعاب عليهم

(٤) ان الضباط الترك والضباط العرب عاملوهم (اي عاملوا الاسرى البريطانيين الذين كانوا في اسر العرب في حدود مصر الغربية) بالرفق والانسانية والشفقة وان المشقة التي عانوها لم تنشأ عن سوء المعاملة بل عن قلة الطعام واللباس والادوية وان آسريهم كانوا مثلهم وقاسوا معهم ما قاسوهُ من هذا القبيل »

فقابلوا ايها الدكتور الفاضل بين افعال هؤلاء الانكليز والفرنسويين والروس والترك والعرب و بين افعال الالمان تلامذة الفلاسفة الماديين وما فعلوهُ بركاب السفن التي اغرقوها و بالاسرى الذين اسروهم و بالنساء والبنات اللواتي احتلوا بلادهن

وكل ما تقدم لا يحط من قيمة العلوم الطبيعية ونفعها الكبير ولا ينفي وجوب الحث على تعلمها والعمل بها ولكنهُ يدل على حاجة الانسان الى التعاليم الادبية مهما كان اساسها — التعاليم التي توجب على الناس الحب والرحمة والحنان وتصرفهم عن القسوة والغطرسة والايثار

أما سائر ما استطردتم الى ذكره مما تقوم عليهِ ادلة عملية او فلسفية او لا يزال في معرض الفرض فالاسهاب فيهِ يبعدنا عن الموضوع المقصود بالذات . واننا نشكركم على ما وصفتم بهِ المقتطف وهو يفتخر بان قراءهُ استفادوا مما تحفونهُ بهِ آونة الى اخرى من الفوائد العلمية والادبية والفلسفية

المصطلحات الفلسفية

سادتي الافاضل

على السؤال نمرة ٣ من مقتطف فبراير الحاضر اجبتم الاستاذ عبد الباري ان كتب الفلسفة تأليف ابن سينا لا تفهم (وهي الحقيقة التي لا جدال فيها ولا مراء) . غير اني بينما كنت بالامس اتصفح فهرس مكتبة « هندية » لسنة ١٩١٦ قرأت في الصفحة ٣٧ منها سطر ٤ اسم كتاب « مبادئ الفلسفة القديمة لابي النصر الفارابي » فحدثت بهذا اقول انهُ ربما كان في هذا الكتاب ما ينفي بعض حاجة الاستاذ عبد الباري والسلام ختام

احمد الصراف